المقتطف

الجزء العاشر من السنة الثامنة عشرة

١ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٤ الموافق ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣١١

الآثار الناطقة في القطر المصري

لم يُطوَ المصريون القدماء حتى نشروا ما كانوا عليهِ من رفعة الشان وفخامة الملك ورفاهة العيش لا في صحُف تبلى وسطور تطمس بل في مدافن يرعى الدهر حرمتها. وهيا كل تعجز انيابهُ عنها. وما اودعوهُ من اخبارهم بطون القراطيس لم يدَعوهُ عرضة للتلف بل ختموا عليهِ في نواويس الصوّان ودفنوهُ حيث يتعذر البلوغ اليهِ الاّ على من اغواهُ شيطان الطمع او اركبهُ حبُّ الاكتشاف اخشن المراكب. هذه هي رسوم الاولين التي استطلع المحدثون طِلْسها واستنطقوها عن امر اصحابها فنطقت من غير مَيْن وكيف تمين الرسوم والصور وهي شهود العيان

انظرْ الى ما ادرجناهُ في الصفحة التالية وما بعدها من رسوم المصريين القدماء تجدهُ ناطقاً بأفصح لسان انهُ صوَر اسرى قادهم احد الفراعنة بالذل والهوان بعد ان دارت عليهم الدوائر وطحنت قومهم رحى الحرب. وان ذلك الملك الفاتح دوّخ الامصار الشاسعة فامتدّت غزواتهُ من بلاد الاحباش الى بلاد الصقالبة وانهُ كان جبارًا عنيدًا اذا ظفر بقوم نكّل بهم تنكيلاً وقاد اسراهم عبيدًا او اوقع بهم صبرًا امام معبودهِ قربةً لهُ وزلفى

وما تقدم من الوصف ظاهر لا خلاف فيهِ ولعلهُ لم يخفَ على العرب الذين نزلوا هذه الديار بعد اندثار اصحابها الاولين وانقطاع اخبارهم لكنهم لم يعلموا اسم هذا الملك ولا اسماء غيرهِ من الملوك ولا ما ينسب الى كلٍّ منهم من الآثار. وقد وصف المؤرخون

الاقدمون من اليونان والرومان واليهود ما كان عليهِ الفراعنة من العز والسودد وما بلغتهُ بلادهم من الحضارة ولكنهم مزجوا الغث بالسمين والحقيقة بالوهم وضاع اكثر ما كتبوهُ مع ما ضاع مِنْ كتب السلف حتى

كأنْ لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامرُ

وامسينا منذ بضعة عشر قرنًا ولسان حالنا يقول

اعياكَ رسمُ الدار لم يتكلمِ حتى يكلمكَ الاصمُّ الاعجمي

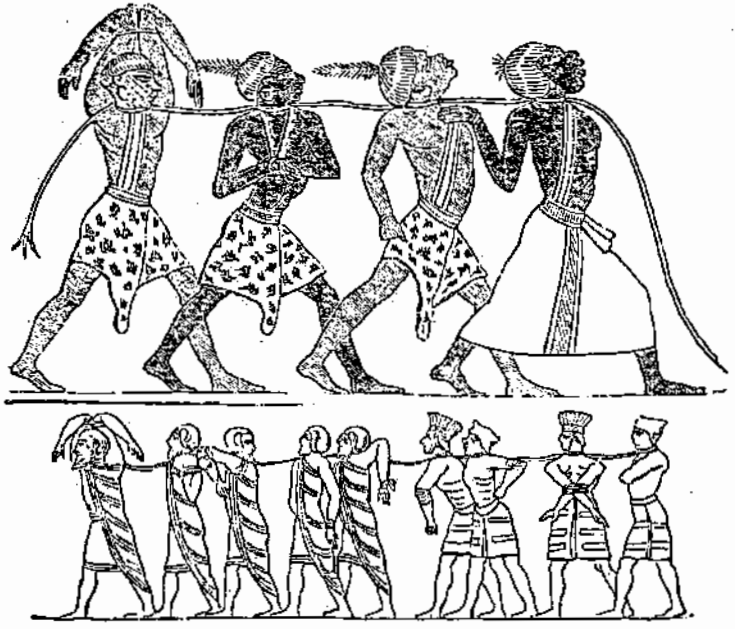

لكن المصريين القدماء لم يقتصروا عَلَى الرسوم والصور بل شفعوها بكتابات مفصّلة نقشوها في صلد الصخر وغطوا بها جدران هياكلهم لكي تبقى تاريخًا ناطقًا مدى الايام والاعوام عند من يجد الى حلها سبيلاً . فلما قيض الله لعلماء عصرنا ان يقرأوا هذه الكتابات ويحلوا رموزها وجدوا فيها تاريخًا مسهبًا كأوفى التواريخ التي يضعها ابناء هذا الزمان ومنهُ يظهر ان القدماء قصدوا ما نقشوهُ وصوّروهُ ان يخلّدوا ذكر ملوكهم وان يصفوا ما بلغوهُ من الحضارة وما استنبطوهُ من اساليب المعيشة حتى علومهم وفنونهم وآدابهم وعقائدهم وخرافاتهم وتقاليدهم وافراحهم واتراحهم كل ذلك تراهُ مرسومًا رسمًا ناطقًا ومشروحًا شرحًا مسهبًا على جدران الهياكل والمدافن وفي كل غار ومعقل

والملك الذي قاد الجحافل واباح ذمار الاعداء وعاد بهؤلاء الاسرى من مختلف الاقطار ووقف يريد التكيل بهم امام معبودهِ هو رعمسيس الثاني الملقب بالكبير كما ثبت من قراءة اسمهِ بجانب صورتهِ . وهو الذي عثر ابناء هذا العصر على جثتهِ محنَّطة فأتوا بها الى دار التحف المصريَّة وعرضوها للناظرين منذ بضعة اعوام ولم يرعوا حرمة صاحبها ولا وقَّروا مقام الملوك . وهل يهونُ عليهم ان تعرض جثث آبائهم واجدادهم على هذا النمط ولا سيما اذا كانوا قد بذلوا غاية وسعهم قبل موتهم لكي تدفن جثثهم حيث لا تراها عين ولا تصل اليها يد انسان

واذا استقرينا ما كشف من آثار هذا الملك وامعنَّا النظر فيهِ وفي ما جاء عنهُ منقوشاً بالقلم المصري القديم امكننا ان نستخلص منهُ تاريخاً كبيراً مثل تواريخ الملوك المعاصرين لا يقتصر على وصف حالهِ وغزواتهِ بل يشمل وصف البلاد كلها ووصف ما جاورها من البلدان

وقد عُلم من هذه الآثار ان رعمسيس هذا نشأ منذ ثلاثة آلاف ومئتين وبضع وعشرين سنة وانهُ كان كبير القامة مجدول العضل شجاعاً مهيباً محبًّا للعلوم والفنون مغرماً باتشاء المباني والمصانع وتوسيع نطاق المملكة . قاد الجنود وغزا بهم بلاد النوبة قبل ان رقي سدة الملك واثخن في اهلها وعاد منها بالغنائم والاسلوب من الاسود والفهود

والغزلان والذهب والعاج والابنوس . وفي السنة الخامسة من ملكهِ جرَّد الجيوش لحرب الحثيين في بلاد الشام وكانوا من امنع اعدائهِ واشدِّهم بأساً فانتصر عليهم وكان لانتصارهِ شأن كبير عند قومهِ فنقشوا وصفهُ ورسومهُ في هياكل طيبة وكلبشة وابي سمبل ونظم فيهِ شاعرهم بنتاور قصيدة لم تزل حتى الآن آية في البلاغة وحسن البيان . وعلة هذه الحرب ان الحثيين كانوا يدفعون الجزية للملك تحتمس الثالث الذي حكم مصر قبل رعمسيس الثاني بنحو مئتي عام . ثم كبرت نفوسهم فشقوا عصا الطاعة وخرج رعمسيس لقتالهم والتقى بجموعهم امام مدينة قادس على نهر العاصي . وقبل ان تلتقي العينان بالعين وقد على معسكرهِ رجلان منهم وادَّعيا ان رؤساء قبيلتيهما ارسلاهما ليخبراهُ بانفصالهم عن ملك الحثيين ورغبتهم في الانضمام اليهِ وتأدية يمين الطاعة لهُ وقالا ان ملك الحثيين مخيم في مكان بعيد عن معسكر المصريين وانهُ خائف من مناجزتهم

وغنيٌّ عن البيان ان ملك الحثيين ارسل هذين الرجلين ليتجسسا لهُ معسكر المصريين ويشيرا عليهم بما فيهِ الهلكة لهم . ولم يكادا ينطلقان حتى جاء رعمسيس رجل من حرسهِ برجلين آخرين من الحثيين فعلم منهما ان ملكهم قريب منهُ بجيشهِ ورجلهِ وانهُ مخيم خلف مدينة قادس فجمع قوَّاد جيشهِ واخبرهم بما سمعهُ من هذين الرجلين فاستغربوا ذلك ولم يصدقوهُ لما رسخ في اذهانهم من قول الرجلين الاولين . اما رعمسيس فلم يكن ليُخدَع بالكذب فلام رئيس الطلائع لوماً شديداً لانهُ لم يعرف موقع العدو قبل ذلك واصر الجنود ان يركبوا حالاً ويهجموا على قادس وفيما هم يعبرون النهر الذي بينهم وبينها انهالت عليهم جيوش الحثيين وسدَّت عليهم منافس الفضاء فاختطف رعمسيس عدة حربهِ بأسرع من لمح البصر واسبغ عليهِ درعاً مضاعفة وركب مركبتهُ وهجم عليهم كالليث الغضنفر وبادرهم بطعن لم يبقِ ولم يذر فوقعت اشلاؤهم عن يمينهِ ويسارهِ حتى كادت تسد النهر . واجتمع عليهِ ألفان وخمسمئة مركبة فبدَّد شملها تبديداً واستتبَّ لهُ النصر

وفي السنة الثامنة من ملكهِ قاد السرايا على مدائن الشام الجنوبيَّة ففتح عسقلان وما جاورها ولم يمضِ زمن طويل حتى خضعت لهُ كل مدن الساحل وما بين النهرين

وفي الثانية والعشرين من ملكهِ صالح ملك الحثيين وكتبا ميثاقاً في مدينة تنيس وصفا فيهِ ما كان بين الامة المصريَّة والحثيَّة من العهود والمواثيق وتعاهدا على الموالاة والمالأة وتزوَّج رعمسيس بابنة ملك الحثيين

ولم تشغل الحروب هذا الملك الظافر عن الاهتمام بما يخلد ذكرهُ فترى اسمهُ على الانصاب من مدينة بيروت في ساحل الشام الى مدينة نبطي قصبة بلاد الاحباش. ووسع مدينة تنيس لانهُ كان يقيم فيها فصل الصيف وبنى فيها هيكلاً من المرمر. ويُظن انهُ بنى سورًا بقربها يمتدُّ من الطينة (بلوزيوم) الى المطريَّة (هليوبوليس) واقام المسلاَّت في المطريَّة ووسع هيكل فتاح في مدينة منف واتمَّ هيكل العرابة المدفونة (ابيدوس) الذي شرع فيهِ ابوهُ سني الاول. واكمل المباني ٱلَّتي شرع فيها ابوهُ وجدهُ في مدينة طيبة. ولهُ في طيبة اعظم الهياكل وابدع التماثيل ونحت هيكلاً في الصخر في كلبشة ببلاد النوبة والهيكل الشهير في ابي سمبل وعنهُ نقلت هذه الصور وقد جعلهُ تذكارًا لانتصارهِ على الحثيين وهو اضخم الآثار المصريَّة في بلاد النوبة واجملها بل اجمل الآثار المصريَّة كلها وابدعها وسنأتي على وصفهِ في فصل آخر

وملك رعمسيس سبعًا وستين سنة وبلغت مصر في ايامهِ اوج مجدها وحملت اليها الجزية من كل الممالك وصارت مقصدًا لاهل العلم يفدون اليها من سائر الاقطار ومنجمًا للصناع فاستعملهم رعمسيس في بناء الهياكل والقصور وتزيينها

هذا قليل مما عرفهُ اهل البحث عن هذا الملك بعد نظرهم في آثارهِ ٱلَّتي كشفت الى الآن وقراءتهم ما كتب عنهُ او كتبهُ عن نفسهِ بالقلم المصري القديم

الاَّ ان آثار المصريين القدماء لا تقتصر على تاريخ ملوكهم وعظمائهم بل تتناول كل احوالهم المعاشيَّة من حيث المأكل والمشرب والملبس والبيع والشراء والعلم والقضاء والنوح والغناء واللهو واللعب والزراعة والصناعة مما يطول شرحهُ ولا يوفى وصفهُ الاَّ في المجلدات الضخام

مثال ذلك ان الصورة المرسومة في الشكل الثالث صورة مجلس من مجالس الانس عند المصريين القدماء وقد اجتمعوا فيهِ رجالاً ونساء قبل الوليمة وتعاطوا من الشراب والطيب ما تطيب بهِ نفوسهم ويشهى اليها الطعام. فتحت الرقم ١ صورة امرأة جالسة على كرسي قوائمهُ كقوائم الاسدوهي مسدولة الغدائر مطرَّزة القلائد حسنة الشغوف وبجانبها رجل يشمُّ زهرة نيلوفر (بشميم) وامامهُ غلام بيدهِ قلادة يريد ان يقلدهُ اياها وبجانبهِ جارية بيمينها اكليل من الازهار وبيسارها كأس من الشراب وتحت الرقم ٢ غلام آخر يقدم زهرة الى رجل جالس على كرسي وبجانبهِ جارية بيدها الواحدة اكليل وبالاخرى جام فيهِ طيوب وجملة ما في الصف الاعلى ثلاثة رجال وثلاث نساء وغلامان وثلاث

جوارٍ . وفوق الرقم ٤ غلام بيدهِ الواحدة كاس وبالاخرى منديل وكذلك فوق الرقم ٥ جارية بيدها الواحدة كاس الشراب وبالاخرى منديل . وجملة ما في هذا الصف

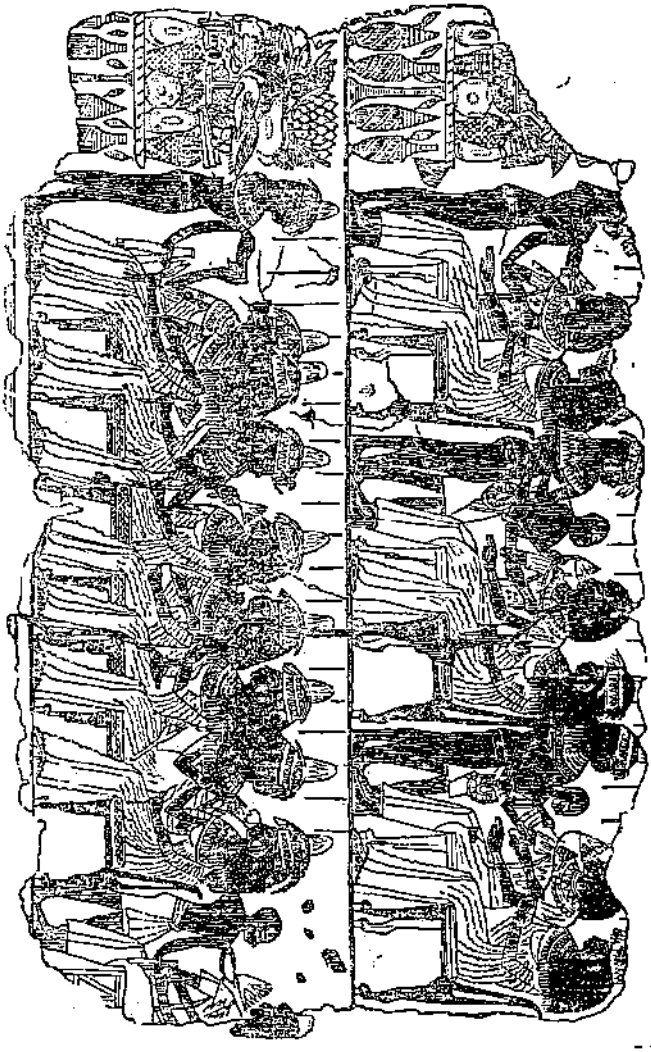

رجل وثمان نساء وغلام وجارية . والجواري كلهنَّ بالدمالج والقلائد والاقراط مسترسلات الغدائر مكللات الرؤوس لا يفرقنَ عن سيداتهنَّ الاَّ في كونهنَّ لسن متسربلات بالحال مثلهنَّ . وحشايا الكراسي مطرزة او منقوشة عدا ما في قوائمها من حسن الصنعة . وعلى المائدتين تحت الرقم ٣ وفوق الرقم ٦ خبز ولحم واوزٌ مطبوخ وتين

وعنب وازهار وقناني الشراب . كأن الوليمة قد اعدّت لهؤلاء المدعوين ولم يبق الاّ ان يستريحوا ويشربوا قليلاً من الراح قبل تناول الطعام والظاهر انهم يستحلون الراح قبل الطعام ومعهُ وينشدون قول ابن المقفع

سأشربُ ما شربت على طعامي ثلاثًا ثم اتركهُ صحيحا
فلستُ بقارفٍ منهُ إثامًا ولست براكب منهُ قبيحا

وكانت موائدهم مستديرة على قائمة واحدة متينة اسطوانيَّة الشكل او مدقيّة وقد تكون في شكل رجل يحمل الخوان على رأسهِ . وآنية الطعام من الصحاف والجفان والملاعق كثيرة النقش بديعة الرسوم

وكانوا يهيئون الطعام في مطابخ كبيرة تحت بيوتهم فيذبحون لهُ عجلاً او جديًا او عنزة او غزالاً وكثيرًا من البط والاوز والسمانى وما اشبه . اما العجل فكانوا يعرقلونهُ ويرمونهُ على الارض ويذبحونهُ ويتلقفون دمهُ في اناء ليطبخوهُ ثم يقطعون رأسهُ ويسلخونهُ ويقطعون ذراعيهِ وفخذيهِ ويحمل الخدم هذه القطع على اطباق من الخشب الى المطبخ فيسلق الطاهي بعضها ويقلو البعض الآخر او يطبخهُ مع البقول ويتبلهُ بالتوابل . وهذا كان شأنهم في طبخ الجداء والغزلان اما الطيور والاسماك فلم يكونوا يقطعونها بل كانوا يطبخونها صحيحة بعد تنظيفها ويضعونها على المائدة كذلك

ويظهر من صور مطابخهم الباقية الى الآن في قبور الملوك غربي لقصر انهم كانوا يصنعون الاثاني من الحديد او النحاس وينصبون عليها المراجل ويوقدون تحتها النار ويطبخون طعامهم فيها ويتبلونهُ بالتوابل بعد ان يدقوها في الهاوين ويسلقون الطيور او يشكونها بالسفود ويشوونها ويكون بيد الشاوي مروحة يروح النار بها ويرفع الغثاء من الطعام وقت طبخهِ وتضاف اليهِ سوائل تجري من آنيتها بواسطة المصات (سيفون) وينخل الدقيق ويلتُ ويعجن كما يعجن الآن وتصنع منهُ الاقراص وتنقش او تذر عليها حبوب الخندقوق والكمون والسمسم والكراويا . وقد يعجن الدقيق حتى يبقى لين القوام كالعصيدة ثم يصب فوق صفيحة محماة فيخرج حبالاً "كالمكرونة" . ومراجلهم مثل مراجل هذه الايام تمامًا وكان عندهم مواقد يوقدون الفحم فيها ويضعون المراجل فوقها

ثم اذا نضج الطعام وأُعدت كل الوانهِ نُقل الى المائدة لونًا لونًا والغالب ان النساء كنَّ ياكلن وحدهنَّ والرجال وحدهم ولكن ذلك لم يكن مضطردًا بل كثيرًا ما كان الرجال والنساء يأكلون معًا . وكلما وصل ضيف من الضيوف المدعوين الى الوليمة قابلهُ المخنون

بالغناء والعزف على المعازف كالعادة الجارية الآن حتى اذا تكامل عددهم وشربوا وتطيبوا جلسوا حول الموائد وقُدِّمَتْ لهم الوان الطعام لونًا لونًا تتخللها كؤوس الراح ثم انواع الفاكهة ولا سيما التين والعنب والتمر خضراء في ابانها ويابسة في غيرهِ او معقودة بالعسل . وكانوا يتناولون المرق بالملعقة وسائر الطعام بأصابعهم ولا يستعملون السكين الاَّ في تقطيع اللحم . واكثر معالقهم من العاج والعظم والخشب والنحاس وبعضها مموَّه بالذهب

ولم يكونوا يعرفون عمل الصابون فكانوا يغسلون ايديهم بعد الطعام بدقوق الترمس والظاهر ان كلمة ترمس العربيَّة مصريَّة الاصل . ومن الغريب انهم كانوا يصلُّون قبل الطعام وبعدهُ شاكرين الله على نعمهِ . ثم يقومون الى الغناء والرقص والطرب والتسلي بالالعاب المختلفة

وهذه الامور وامثالها واضحة في الصور المصريَّة القديمة التي كان الجهَّال والمحدودون يكسرونها ويبنون بيوتهم بها او يحرقونها كلسًا في ايام عبد اللطيف البغدادي ولم تعرف لها قيمة الاَّ بعد نبوليون الاول واهتمام اهالي اوربا بآثار هذه البلاد

الاستعداد للحرب ولا الحرب

اذا جمعنا ما تنفقهُ دول اوربا على جنودها البريَّة والبحريَّة في العام الواحد بلغ المجموع نحو ٢٠٠ مليون من الجنيهات . وهي تنفق هذه الاموال الطائلة لدفع غوائل الحروب والدفاع عن الاوطان . ولا تقتصر على انفاقها لكن عندها من الجنود المنظمة ثلاثة ملايين وثلث مليون من نخبة رجالها فاذا فرضنا ان متوسط دخل كلٍّ منهم اربعون جنيهًا في السنة لو تعاطوا الاعمال المختلفة كسائر الناس بلغ مجموع دخلهم كل سنة ١٣٢ مليونًا من الجنيهات . فممالك اوربا تخسر سنويًّا بتجنيد هؤلاء الجنود ٣٣٣ مليونًا من الجنيهات

لكننا اذا التفتنا الى اوربا بنوع عام لم نجدها آخذة في التقهقر والخسران بل بالضد من ذلك نراها تتقدم على الدوام ونجد مصنوعاتها تزيد عامًا بعد عام حتى لم تعد تجد اسواقًا تبيع بضائعها فيها فاضطرَّت ان تفتح ممالك آسيا وافريقية لهذه الغاية مما يدلُّك على ان تجنيد رجالها لم يؤخرها عن العمل بل لم يؤثر فيها تأثيرًا يشعر بهِ . وذلك لان فيها اكثر من ثلثمئة وثلاثين مليونًا فاذا كان عدد جنودها ثلاثة ملايين وثلث مليون